العرب
الخميس 2021/10/14
السنة 44 العدد 12209

الجمال ليس شيئا ولا هو جوهر وإذا أردت فهمه عليك أن تفهم القبح

المصري عزت قرني: الجمال يمثل الثمرة الأعلى للحياة

يفضل الناس الجمال على القبح معتبرين إياه السمة الأهم في الحياة، سمة ترافق الإنسان في يومياته بداية من وقوفه أمام مرآة صباحية إلى رؤاه عن ذاته والعالم وأهم أفكاره الوجودية، الجميع يسعون إلى بلوغ الجمال والتقاطه. لكن نتساءل هنا ما هو الجمال؟ وهل هو واحد؟ وما هي أهم خصائصه؟ أسئلة يجيب عليها الباحث المصري عزت قرني في كتاب جديد.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

لكل منا رؤيته للجمال (لوحة للفنانة زينب جبوري)

يشكل كتاب "الجمال والجميل.. من الجمال إلى الجميل" إحدى أبرز حلقات المشروع الفلسفي المستقل لأستاذ الفلسفة عزت قرني الذي أطلق عليه "مجموعة إنشاء الفلسفة المصرية"، حيث يعتمد جوهريا على نتائج ما تم تقديمه في الكتب السابقة من المشروع، وهي "الفلسفة المصرية: شروط التأسيس"، "مستقبل الفلسفة في مصر"، "تأسيس الحرية" الذي عرض أصوليات مبحث الوجود والتأسيس العام لكيان الإنسان وتجربته في العالم، "طبيعة الحرية" الذي عرض نظرية الذهن مؤسسة على الكتاب السابق، "الذات والاعتقاد ونظرية الفعل"، "غايات الإنسان وفكرة الخير" و"الإنسان.. التكوين الأساسي والظواهر الكبرى".

يدرس الكتاب موضوع الجمال والجميل على نحو تفصيلي منظم، وذلك من حيث إدراكه وتذوقه وتقديره، وينطلق بداية من تحديد الخطوط العريضة لنظرية مصرية في ما كان يسمى بـ"القيم" وذلك تحت عنوان "نظرية المقدرات"، أي أمور هي موضع تقدير عام عند بني الإنسان، وما ذلك إلا لأن الجمال هو غاية وهو أيضا مقدر بل أهم ما يقدره البشر، ولكن الجمال إنما هو تصور ذهني، فهو مجرد بالتالي. ولعل الموقف المركزي الذي يقدمه قرني هنا هو نقل الاهتمام والتركيز من تصور الجمال وهو أمر تجريدي، إلى كيان الجميل وهو المتعين في التجربة بالضرورة.

ثمرة الحياة

في محاولته للتعريف بمفهوم المقدرات قال قرني إن "كل مقدرات الشخص المعين، والمجتمع والثقافة أيضا، تدخل في باب الاعتقادات القوية، وبالمقابل فإن الاعتقادات الراسخة تدخل ضمن عائلة المقدرات التي أعلاها الجمال فـ'الكمال والخير والقوة والدوام'، كما نشير أيضا إلى مفهوم المقدر ليس أحادي الجانب، بل فيه جوانب وعناصر وجدانية وتفكيرية وخلقية ووظيفية وحيوية وغير ذلك، وهو ما يشكل مصدرا للالتباس في شأن مضمون كل مقدر، إن لم يكن غموضه، وخاصة أن المقدر المعين يعبر عنه بكلمة معينة من كلمات اللغة المشتركة، لكنه من الصعب كثيرا، وأحيانا يكون من المستحيل أن يتوصل المستمع أو القارئ إلى مكنون المعنى الذي تعبر عنه كلمات 'بديع'، أو 'جميل'، أو 'عظيم' أو 'شريف' التي يلقى بها القائل إلى السامع، حتى لقد يكون هو وحده من يدري ما يقصده بها حقا".

وأضاف أن تصور الجمال أو معنى الجمال ومن ثم مفهومه يحتل مكانة بارزة في حياة الذهن، لأنه من أهم المقدرات من حيث تجربة الإعجاب والتمتع، وهو يرتبط إلى درجة عالية، وعلى الخصوص بتقدير المرئيات من تكوينات وأشكال ومناظر وألوان وحركات وأداءات بأنواعها، بل امتد وصف الجميل لينال غير المحسوسات في طرائق التعبير العادية، فيقال أحيانا عن غير تدقيق في لغتنا العربية وفي غيرها "نفس جميلة" و"فكرة جميلة" إلى غير ذلك، ليصل الأمر إلى قول انتشر ترديده في العقود الأخيرة ولأهداف معينة، وهو "أن الله جميل يحب الجمال" وإن لم يظهر الجمال بين أسماء الله الحسنى.

وترتبط التعبيرات المتواترة عن الجمال بينه وبين النساء والحب والزهور والترف والفن بصفة خاصة، وكثير من الأديان القديمة وضعت له أربابا، ومن الأناث بصفة خاصة، فهناك "حاتحور" المرية، و"أفروديتي" اليونانية، إلى غير ذلك. ويمكن القول إن عامل الجمال بأعم ما لهذه الكلمة من معنى يختلط مع كل إدراك حسي إلى درجة أو أخرى، عند الإنسان مؤكدا، وفي سائر الأعمار ومنذ الحالة الجنينية على ما تدل تجارب تأثير أنواع الموسيقى على الجنين في بطن أمه، وربما أيضا عند بعض فصائل الكائنات الحية كما عند الطيور مثلا.

ورأى قرني أن إدراك الجمال يأتي غامضا مختلطا في البداية، ثم يتحدد شيئا فشيئا، وأنه يصبح أكثر وأكثر قرينا بارزا لقمة الحياة، ألا وهي الازدهار. بل إنه يلوح لنا أحيانا وكأن الجمال هو الثمرة الأعلى للحياة، وإن لم يصلح وحده مقوما لها تقوم عليه، لكنها تنتجه وقد تستهدفه ضمنا. ولماذا لا نذكر هنا هذا الافتراض الذي يظهر عجيبا: أليس للشيء الجميل هو نفسه "نظام عصبي" وقد يكون ساكنا أو ديناميكيا؟ وفي هاتين الكلمتين الأخيرتين يجتمع مفهوما النظام والجهاز العصبي اللذان هما من أهم مداخل محاولات فهمنا لظهور مفهوم الجمال نفسه.

وأشار الباحث إلى أن الجمال ليس بشيء، ولا هو جوهر، وإنما هو مجموعة من الصفات والكيفيات والعلاقات تتوافق معا في تعينها في الشيء المعين، وهو الموجود تصوريا من قبل صلته بصفة الجمال، وحين تدخل هذه الصفات والكيفيات تصوريا وليس زمانيا على الشيء المعين، فإنه يتصف بصفة الجمال أو يصبح من الممكن للمدرك المقدر أن ينسب إليه صفة الجمال.

ولا يجب أن يفهم من هذا الكلام أن هناك شيئين؛ الشيء المعين من جانب والجمال من جانب، ولا أن الشيء يكون بتمامه أولا، في الزمان، ثم يدخل عليه الجمال من بعد ذلك كالضيف الزائر أو كالزينة المضافة على الوجه أو الثوب، إنما المقصود هو محض التمييز التصوري بين الشيء من حيث هو كيان معين، وليكن مثلا زهرة أو منظرا طبيعيا أو جسدا إنسانيا أو فرسا أو لوحة تصويرية أو نحتا وما شابه، وبينه هو نفسه لكن من حيث "تقديره" بأنه جميل لوجود سمات فيه رأى أو قدّر المدرك أنها تجعله يبدو جميلا.

وتابع قرني أن الخطر الحقيقي الذي يعوق الفهم السليم لظاهرة الجمال، أي وجود أشياء نسميها أو نصفها بالجميلة، هو "تشيؤ" الجمال، أي توهم وجود شيء خارجي في العالم أو موجود ما ذي وجود موضوعي على نحو أو آخر، وهو ما قد ينزلق إليه الفكر بسبب وضع أداة التعريف قبل الاسم، ولسهولة الانتقال من الكلمة إلى صيغة الاسم إلى تصور وجود ما يقابلها في عالم الوقائع.

الجمال والقبح

رأى قرني أن هناك مرجعية وجودية للجمال تتمثل في أنه لا يكون إلا في جميل، أي في شيء متعين، وأن هذا المتعين مركب بالضرورة، وبالتالي فإنه نتيجة لعلاقات، كما أنه لا يمكن أن يكون منعزلا عن بقية أشياء العالم بل هو بالضرورة على صلات شتى مع غيره، وهذا كله يدعو للانتباه إلى أمرين يستحقان الاعتبار: الأول هو أن كل جميل لا يمكن أن يدرك منعزلا عن أشياء غيره، وبالأخص عما يكون "محيطا" له بصفة عامة، ويشكل "خلفية" قريبة منه أو ملاصقة له بصفة خاصة، ولذلك "المحيط" ولتلك "خلفية" تأثيران مهمان، إن لم يكن على وجود الجميل، فعلى الأقل على نوعية وكيفية إدراك المدرك له، والثاني أن جمال الجميل يتأثر إلى درجة ملحوظة بعلاقات وتناسبات الامتلاء والفراغات داخل تكوين الجميل، وهو تأثير يظهر في شكل الجميل كما يؤثر على كيفية الإدراك له.

وأكد أن على كل من يتكلم عن الجمال أن تكون عنده فكرة واضحة ولو بعض الشيء عن القبح، وإن كان هذا لا يعني الكلام عن الأمرين على نفس الشكل، وهو يقابل ما حدث عند كتابتنا عن فكرة الخير من جهة ونظرية الشر من جهة أخرى، ومع ذلك فإن تعريفنا للقبح سيكون على نفس نسق تعريفنا للجمال، لكن بالضد.

> تصور الجمال أو معنى الجمال ومن ثم مفهومه يحتل مكانة بارزة في حياة الذهن لأنه من أهم المقدرات

القبح، في رأيه، هو سوء التكوين المنفر الباعث على التقزز. و"سوء التكوين" يشير إلى الأساس الموضوعي القائم في الشيء الذي نسميه قبيحا، و"المنفر" هو نتيجة الإدراك والتقدير، و"باعث على التقزز" يشير إلى أثر إدراك القبيح في ذهن المدرك، لقد رأينا أن الجمال تكامل وتآلف بين العناصر وتواؤم وتوافق، بينما القبح يكون اللاتكامل والتنافر بين العناصر بما يؤدي إلى التشوه، وبينما الجمال اتجاه نحو الكمال، فإن القبح يقع في النقص وفيه هبوط وتدن وسقوط. إن سوء التكوين والتشوه والنقص من أهم عناصر الموضوعية في تكوين القبيح.

ولما كان الجمال يتوجه إلى الوجدان خاصة من خلال الحواس، تطرق قرني إلى تأثيره الوجداني موضحا أن المعتاد أن يظهر الجمال أمامنا فجأة ونادرا ما ننتظر قدومه في توقيت محدد، ولا شك أن عامل المفاجأة يزيد من حدة تأثير الإدراك الجمالي، ويقال أحيانا في هذا الصدد إن المرء "حبس أنفاسه" عند إدراك الجمال مرئيا كان أم مسموعا، وهو ما يؤدي إلى أن "يترك كل ما بيده" ليتفرغ لرؤية الجميل وسماعه، ويحدث في أثناء هذا كله لمحات من الاحترام العالي، ولا نقول "التوقير" الذي يليق بالعظيم والسامي الذي نتصاغر أمامه وقد نخشع.

وأكد أن الحرمان من الجمال يمكن أن تكون له نتائج سلبية منوعة، وعلى الدراسات الخاصة أن تقوم بفحص الأمر، وكذلك فحص الحالة المقابلة المتصلة بالإشباع والشبع والتشبع، ونعتقد مبدئيا أن منحنى التشبع ينطبق هنا كما ينطبق في حالات إنسانية أخرى. والأقوال الشعبية تعادل بين قوة المال وقوة الجمال، حين تقول عن المرأة البائسة في عيون الناس إنها "بلا مال ولا جمال"، مما يدل على أهمية الحرمان من الجمال. إن الجمال لا ينشئ في وجداننا مشاعر من قبيل الانشراح والبهجة والسرور وما شابه، وحسب، بل إن له قوة إيحاء عظيمة، كما يملأنا عادة بالتفاؤل والأمل في الحياة عموما.

المعاناة يمكن أن تتحول إلى لحظات فنية

صور مغربية ملتقطة من شرفة باريسية تواجه كورونا بنداء الروح

الرباط – معتمدا على موهبته الرئيسية في اقتناص اللحظات الدقيقة بعدسة الكاميرا، حول المصور الفوتوغرافي المغربي حمزة محيمدات أيام الحجر الصحي البطيئة والقاسية إلى أعمال فنية طرحها في معرض بعنوان "نداء الروح في زمن كورونا".

وفي لقطات مجالها بين الشرفة والغرفة يستعرض محيمدات (28 عاما) تجربته الشخصية التي امتزجت فيها مشاعر الوحدة والغربة والقلق من الفايروس الجديد خلال أسبوعين قضاهما في الحجر الصحي داخل فندق بمدينة باريس، حيث علق هناك أثناء الموجة الأولى لجائحة كورونا عام 2020 بينما كان في زيارة للسياحة الثقافية.

وقال محيمدات إنه بعد افتتاح المعرض في الرباط مطلع هذا الأسبوع "يجسد المعرض صورا تحمل هاجسا نفسيا تعبيريا، جاء في فترة كنت محاصرا بين أربعة جدران حاولت أن أصور فيها كل تلك المعاناة".

وأضاف أنه فكر حينها في الاشتغال على تقنية (أوتو بورتريه) أو "التصوير الذاتي" ليعبر بها عن حالته النفسية في تلك الفترة، ويُحمل الصورة عدة أبعاد لتجمع ما بين الفني والفلسفي والحركي.

وأكد أن أهم ما خرج به من هذه التجربة هو أن "المشاكل والمعاناة يمكن أن تتحول إلى لحظات فنية".

ولأن التجربة ساهمت في تعظيم رؤيته لقيمة الحياة، قرر محيمدات إهداء معرضه إلى "أرواح المبدعين والفنانين شهداء كورونا" الذين غيبهم الموت خلال العامين الأخيرين ليضطر ذووهم ومحبوهم إلى توديعهم دون تأبين أو بالأحرى دون المراسم الجنائزية المعتادة في المغرب بسبب الإجراءات الاحترازية المطبقة.

وتردد على المعرض المقام في بهو مسرح محمد الخامس بالرباط كتاب ونقاد وإعلاميون وفنانون من بينهم الفنان التشكيلي والناقد شفيق الزكاري الذي وصف تجربة محيمدات بأنها "متقلبة.. تختلف احتسابا للزمان والمكان، في ارتباطها بالموضوع والحالة النفسية للذات المبدعة" حيث وثق الأحاسيس التي داهمته كما داهمت بقية العالم في وضع استثنائي غير متوقع وغير مشهود بغموض مستقبله ورهبته.

ويستمر المعرض الذي تأجل عدة مرات بسبب الموجات المتتالية للتفشي حتى السابع عشر من أكتوبر الجاري.

ولكن من ناحية أخرى نجد مفارقة كبرى حيث ساهمت الأوقات المتاحة التي فرضتها الظروف الصحية في تطوير ثقافة الإبداع لدى الكثير من المصورين الفوتوغرافيين الذين وجدوا أنفسهم مضطرين للالتفات إلى ذواتهم وعوالمهم الضيقة وتوثيق التفاصيل اليومية من داخل المنزل، عبر الدخول إلى عالم التصوير الفوتوغرافي في ظل التدابير الاحترازية للحد من انتشار فايروس كورونا المستجد.

ونجح محيمدات في هذا التمشي بابتكاره معاني متعددة من وحدته التي فتحها على عدة أفكار بين الخوف والترقب والأمل وغيرها من التأملات التي صاغها من ظلمة الوحدة والعزلة والترقب. فقد وجد نفسه صدفة معلقا بين جدران غرفة فندق صغيرة بالعاصمة الفرنسية، ولم يكن لديه سوى الكاميرا ليعيد تشكيل تلك الفترة من حياته بطريقة أخرى.

> المعرض يجسد صورا تحمل هاجسا نفسيا تعبيريا جاء في فترة كان فيها الفنان محاصرا بين أربعة جدران

غرفة صغيرة غارقة في صمت كورونا الرهيب، ونافذة تاكلت صباغتها تطل على شارع من شوارع باريس، حيث تقابله عمارة سكنية، تعارف مع بعض سكانها عن بعد، كان هذا هو الفضاء المحدود الذي أبدع فيه صوره الفنية التي تشكل نقلة في تجربته الفنية من صيغة "الكارتبوستال" إلى صيغة التصوير الذاتي، التي مزج فيها بين صور متعددة يشكل فيها جسده حضورا أساسيا، مع الاشتغال على الفضاء الخارجي المنعكس على زجاج النافذة، في مواجهة تداعيات الوباء والحجر الصحي في الغربة.

وقد وجد الفنان نفسه بعيدا عن أهله ووطنه تتقاذف روحه أمواج القلق والخوف واللايقين التي اكتسحت العالم بأسره في تلك الأيام الرهيبة، دون أن يجد بجانبه غير آلة التصوير صديقا وحيدا يفجر من خلالها أحاسيس فياضة ومتداخلة في صور معبرة ومفعمة بـ"نداء الروح" الذي اختاره عنوانا لهذا المعرض.

وتعرض قطاع الفن للدمار بسبب الإغلاق المستمر للمتاحف والمعارض والمكتبات والمسارح ودور السينما، وتكافح حتى أكثر المؤسسات احتراما من أجل الوقوف على قدميها. وهو وضع انعكس على الفنان بشكل كبير، لذا فإن مثل هذه المعارض ستكون فرصة لاستعادة النشاطات الفنية في المغرب وعودة للأمل من خلال استذكار لحظات كانت فارقة في تاريخ جل شعوب العالم.

ويذكر أن المعرض نظم بتعاون مع مسرح محمد الخامس والمديرية الجهوية لقطاع الثقافة بجهة الرباط – سلا – القنيطرة تحت شعار "وفاء للفنانين والمبدعين شهداء كورونا"، حيث تتصدر المعرض لافتة تتضمن صور وأسماء مجموعة من الفنانين والكتاب والصحافيين الذين توفوا بسبب الوباء.

> الجميل لا يمكن أن يدرك منعزلا عن أشياء غيره فهو مجموعة من الصفات والكيفيات والعلاقات تتوافق معا